الاستعارة - نبع الجمال في كتاب الكمال

د. إيهاب السر محمد الياس

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، محمد بن عبد الله النبي الأمي الهاشمي. القرآن كتاب الله الكريم الذي لا يأتيه الباطل من أمامه أو من خلفه، يحتشد بالكثير من المعاني الجمالية التي وظفت توظيفا بديعا، ساحرا يخلب الألباب وينساب بتؤدة في جنان المتلقي فتتوسد الفكرة شغاف القلب وتفعل فيه فعل السحر. سعت هذه الدراسة لإلقاء ومضة ضوء لواحدة من الأساليب البيانية التي استخدمها سبحانه وتعالى صورا مجسدة لتقريب المعاني. استهلت في بدايتها بتعريف الاستعارة لغة و اصطلاحا، ثم دلفت بعد ذلك لتتناول امثله للصور الفنية البلاغية التي تجسد مواطن الاستعارات في القرآن الكريم متبوعة بإبانة الجمال المختبئ بين أحضان هذه المعاني. ثم أتت بعد ذلك خاتمة البحث لتلخص كل هذا الجمال الذي صنع المعجزة الإلهية المحفوظة للابد بقران يتلى في قوله تعالى(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) الحجر-٩

تكمن أهمية هذه الدراسة في تناولها لواحدة من الصور البلاغية الزاهية في اللغة العربية وتزدان هذه الدراسة ويكسبها شرفا أنها تحتضن كتاب الله العزيز وتغوص في خضمه الزاخر لتذوق بديع الكلم وتظهر روعته البلاغية المتفردة وتستشف محاسن الجمال الأسلوبي لسليلته اللغة العربية التي شرفها الله بان يتنزل قرانه الكريم بها مما شرفنا جميعا ونحمد الله على هذه النعمة الربانية والهبة العظيمة: لقد وظف القران الكريم الأساليب البيانية المختلفة على نحو بديع لم يتعوده العرب في أشعارهم من قبل .فكان معجزا ومبهرا وذلك بوفرة الصور الجمالية المركبة. والمقاربات التي ما فتئت تقرب وتوصل الفكرة لذهن المتلقي:

تعد هذه الدراسة دراسة فنية موضوعية تهدف للآتي:

١- تركيز الضوء على مفهوم الاستعارة نظريا وعند علماء البلاغة.

٢- بيان القيم والأخلاق والصفات التي وضحتها الاستعارة في كتاب الله الكريم.

الباب الثاني: الإطار النظري

١,٢: الاستعارة في اللغة

هي مصدر الفعل استعار وانطلاقا من القاعدة الصرفية القائلة (كل تغيير في المبني تغيير في المعنى) فان زيادة السين والتاء في الأصل (عار) تفيد الطلب ، أي طلب العارة والعارة هي ما تداولوه بينهم والمداولة عادة ما تكون بين اثنين والمستعار هو المتداول.

وَقيلَ: مَجَازٌ عَقْلِيٌّ بِمَعْنَى أَنَّ التَّصَرُّفَ فيهَا في أَمْرٍ عَقْلِيٌّ لا لُغَوِيٌّ لا نها لا تُطْلَقُ عَلَى الْمُشَبَّهِ إلا بَعْدَ ادِّعَاءِ دُخُولِه في جِنْسِ الْمُشَبَّه بِه، فَكَانَ اسْتِعْمَالُهَا فِيمَا وُضِعَتْ لَهُ، فَيَكُونُ حَقِيقَةً لُغَوِيَّةً، لَيْسَ فيهَا غَيْرُ نَقْلِ الاسْمِ وَحْدَهُ، وَلَيْسَ نَقْلُ الاسْمِ الْمُجَرَّدِ اسْتِعَارَةً؛ لأَنَّهُ لا بَلاغَةَ فِيهِ بِدَلِيلِ الأَعْلامِ الْمَنْقُولَةِ، فَلَمْ يَبْقَ إلا أَنْ يَكُونَ مَجَازًا عَقْلِيًّا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: حَقِيقَةُ الاسْتِعَارَةِ في الْقُرْآنِ أَنْ تُسْتَعَارَ الْكَلِمَةُ مِنْ شَيْءٍ مَعْرُوفٍ بِهَا إِلَى شَيْءٍ لَمْ يُعْرَفْ بِهَا، وَحِكْمَةُ ذَلِكَ إِظْهَارُ الْخَفِيِّ وَإِيضَاحُ الظَّاهِرِ الَّذِي لَيْسَ بِجَلِيٍّ، أَوْ حُصُولُ الْمُبَالَغَةِ أَوِ الْمَجْمُوعِ.

مِثَالُ إِظْهَارِ الْخَفِيِّ: (وَإِنَّهُ في أُمِّ الْكِتَابِ) الزُّخْرُف: ٤، فَإِنَّ حَقِيقَتَهُ: وَأَنَّهُ في أَصْلِ الْكِتَابِ، فَاسْتُعِيرَ لَفْظُ الأم للأصل ؛ لان الأولاد تَنْشَأُ مِنَ الأم كَإِنْشَاءِ الْفُرُوعِ مِنَ الإصول ، وَحِكْمَةُ ذَلِكَ تَمْثِيلُ مَا لَيْسَ بِمَرْئِيٍّ حَتَّى يَصِيرَ مَرْئِيًّا، فَيَنْتَقِلُ السَّامِعُ مِنْ حَدِّ السَّمَاعِ إِلَى حَدِّ الْعَيَانِ، وَذَلِكَ أَبْلَغُ في الْبَيَانِ.

وَمِثَالُ إِيضَاحِ مَا لَيْسَ بِجَلِيٍّ لِيَصِيرَ جَلِيًّا (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ) الْإِسْرَاء: ٢٤، فَإِنَّ الْمُرَادَ أَمْرُ الْوَلَدِ

بالذُّلِّ لِوَالِدَيْهِ رَحْمَةً فَاسْتُعِيرَ لِلذُّلِّ أولا (جَانِبٌ) ثُمَّ لِلْجَانِبِ جَنَاحٌ، وَتَقْدِيرُ الاسْتِعَارَةِ الْقَرِيبَةِ: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَانِبَ الذُّلِّ) أَيْ: اخفِضْ جَانِبَكَ ذُلا.

وَحِكْمَةُ الاسْتِعَارَةِ فِي هَذَا جَعْلُ مَا لَيْسَ بِمَرْئِيٍّ مَرْئِيًّا لأجل حُسْنِ الْبَيَانِ، وَلَمَّا كَانَ الْمُرَادُ خَفْضَ جَانِبِ الْوَلَدِ لِلْوَالِدَيْنِ بِحَيْثُ لا يُبْقِي الْوَلَدُ مِنَ الذُّلِّ لَهُمَا وَالاسْتِكَانَةِ شيء، احْتِيجَ إِلَى مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنَ فَاسْتُعِيرَ لَفْظُ الْجَنَاحِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي لا تَحْصُلُ مِنْ خَفْضِ الْجَانِبِ؛ لأَنَّ مَنْ يَمِيلُ جَانِبُهُ إِلَى جِهَةِ السُّفْلِ أَدْنَى مَيْلٍ، صَدَقَ عَلَيْهِ أَنَّهُ خَفَضَ جَانِبَهُ، وَالْمُرَادُ خَفْضٌ يُلْصِقُ الْجَانِبَ بِالأَرْضِ وَلا يَحْصُلُ ذَلِكَ إِلَّا بِذِكْرِ الْجَنَاحِ كَالطَّائِرِ.

وَمِثَالُ الْمُبَالَغَةِ (وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا) الْقَمَر: ١٢، وَحَقِيقَتُهُ: (وَفَجَّرْنَا عُيُونَ الأَرْضِ)، وَلَوْ عَبَّرَ بِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنَ الْمُبَالَغَةِ مَا فِي الأول الْمُشْعِرِ بِأَنَّ الأَرْضَ كُلَّهَا صَارَتْ عُيُونًا.

١,٢,٢ أركان الاستعارة

أَرْكَانُ الاسْتِعَارَةِ ثَلاثَةٌ فِي الْقُرْآنِ:

١- مُسْتَعَارٌ، وَهُوَ لَفْظُ الْمُشَبَّهِ بِهِ.
٢- مُسْتَعَارٌ مِنْهُ، وَهُوَ مَعْنَى لَفْظِ الْمُشَبَّهِ.
٣- مُسْتَعَارٌ لَهُ، وَهُوَ الْمَعْنَى الْجَامِعُ.

٢,٢,٢. أقسام الاستعارة

وَأَقْسَامُهَا كَثِيرَةٌ:

أ- تقسيم الاستعارة باعتبار الأركان:

١- اسْتِعَارَةُ مَحْسُوسٍ لِمَحْسُوسٍ بِوَجْهٍ مَحْسُوسٍ

(وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) مَرْيَمَ: ٤، فَالْمُسْتَعَارُ مِنْهُ هُوَ النَّارُ، وَالْمُسْتَعَارُ لَهُ الشَّيْبُ، وَالْوَجْهُ هُوَ الانْبِسَاطُ وَمُشَابَهَةُ ضَوْءِ النَّارِ لِبَيَاضِ الشَّيْبِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مَحْسُوسٌ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِمَّا لَوْ قِيلَ: اشْتَعَلَ شَيْبُ الرَّأْسِ. لإفادة عُمُومِ الشَّيْبِ لِجَمِيعِ الرَّأْسِ.

وَمِثْلُهُ: (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ) الْكَهْف: ٩٩، أَصْلُ الْمَوْجِ حَرَكَةُ الْمَاءِ، فَاسْتُعْمِلَ فِي حَرَكَتِهِمْ عَلَى سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ، وَالْجَامِعُ سُرْعَةُ الاضْطِرَابِ وَتَتَابُعُهُ فِي الْكَثْرَةِ.

(وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) التَّكْوِير: ١٨، اسْتُعِيرَ خُرُوجُ النَّفَسِ شَيْئًا فَشَيْئًا لِخُرُوجِ النُّورِ مِنَ الْمَشْرِقِ عِنْدَ انْشِقَاقِ الْفَجْرِ قَلِيلًا قَلِيلًا، بِجَامِعِ التَّتَابُعِ عَلَى طَرِيقِ التَّدْرِيجِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مَحْسُوسٌ.

٢- اسْتِعَارَةُ مَحْسُوسٍ لِمَحْسُوسٍ بِوَجْهٍ عَقْلِيٍّ.

قَالَ ابْنُ أَبِي الإِصْبَعِ: وَهِيَ أَلْطَفُ مِنَ الأُولَى، نَحْوَ: (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ) يس: ٣٧، فَالْمُسْتَعَارُ مِنْهُ السَّلْخُ الَّذِي هُوَ كَشْطُ الْجِلْدِ عَنِ الشَّاةِ، وَالْمُسْتَعَارُ لَهُ كَشْفُ الضَّوْءِ عَنْ مَكَانِ اللَّيْلِ وَهُمَا حِسِّيَّانِ، وَالْجَامِعُ مَا يُعْقَلُ مِنْ تَرَتُّبِ أَمْرٍ عَلَى آخَرَ وَحُصُولِهِ عَقِبَ حُصُولِهِ، كَتَرَتُّبِ ظُهُورِ اللَّحْمِ عَلَى الْكَشْطِ وَظُهُورِ الظُّلْمَةِ عَلَى كَشْفِ الضَّوْءِ عَنْ مَكَانِ اللَّيْلِ، وَالتَّرَتُّبُ أَمْرٌ عَقْلِيٌّ.

وَمِثْلُهُ: (فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا) يُونُس: ٢٤، أَصْلُ الْحَصِيدِ النَّبَاتُ، وَالْجَامِعُ الْهَلاكُ، وَهُوَ أَمْرٌ عَقْلِيٌّ.

٣- اسْتِعَارَةُ مَعْقُولٍ لِمَعْقُولٍ بِوَجْهٍ عَقْلِيٍّ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي الإِصْبَعِ: وَهِيَ أَلْطَفُ الاسْتِعَارَاتِ، نَحْوَ: (مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا) يس: ٥٢، الْمُسْتَعَارُ مِنْهُ الرُّقَادُ: أَيِ: النَّوْمُ، وَالْمُسْتَعَارُ لَهُ الْمَوْتُ، وَالْجَامِعُ عَدَمُ ظُهُورِ الْفِعْلِ، وَالْكُلُّ عَقْلِيٌّ.

وَمِثْلُهُ (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ) الأَعْرَاف: ١٥٤، الْمُسْتَعَارُ السُّكُوتُ وَالْمُسْتَعَارُ مِنْهُ السَّاكِتُ وَالْمُسْتَعَارُ لَهُ الْغَضَبُ.

٤- اسْتِعَارَةُ مَحْسُوسٍ بِوَجْهٍ عَقْلِيٍّ أَيْضًا

(مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ) الْبَقَرَة: ٢١٤، اسْتُعِيرَ الْمَسُّ وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِي الأَجْسَامِ وَهُوَ مَحْسُوسٌ لِمُقَاسَاةِ الشِّدَّةِ وَهُمَا عَقْلِيَّانِ والجامع اللحاق والإصابة. (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ) الأَنْبِيَاء: ١٨، فَالْقَذْفُ وَالدَّمْغُ مُسْتَعَارَانِ وَهُمَا مَحْسُوسَانِ وَالْحَقُّ وَالْبَاطِلُ مُسْتَعَارٌ لَهُمَا وَهُمَا مَعْقُولَانِ (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ) آل عِمْرَانَ: ١١٢، اسْتُعِيرَ الْحَبْلُ الْمَحْسُوسُ لِلْعَهْدِ وَهُوَ مَعْقُولٌ (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) الْحِجْر: ٩٤، اسْتُعِيرَ الصَّدْعُ وَهُوَ كَسْرُ الزُّجَاجَةِ وَهُوَ مَحْسُوسٌ لِلتَّبْلِيغِ وَهُوَ مَعْقُولٌ وَالْجَامِعُ التَّأْثِيرُ وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ بَلِّغْ، وَإِذْ كَانَ بِمَعْنَاهُ لأَنَّ تَأْثِيرَ الصَّدْعِ أَبْلَغُ مِنْ تَأْثِيرِ التَّبْلِيغِ، فَقَدْ لا يُؤَثِّرُ التَّبْلِيغُ، وَالصَّدْعُ يُؤَثِّرُ جَزْمًا، (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ) الإِسْرَاء: ٢٤،